

## المسألة اليهودية : حقيقة أم خيال؟

"لا تزال المسألة اليهودية موجودة، ومن غير المفيد إنكار وجودها ... فالمسألة اليهودية موجودة في أى مكان يتواجد فيه يهود بأعداد قليلة، وحيث لا تتواجد، يحملها اليهود الذين يقومون بالهجرات. فمن الطبيعي أن نتوجه إلى الأماكن التي لا نتعرض فيها للاضطهاد.... واليهود المنكوبون يحملون الآن معهم معاداة السامية إلى انجلترا ولقد أدخلوها بالفعل إلى الولايات المتحدة".

(ثيودور هيرتزل 'الدولة اليهودية' صفحة ٤).

\* \* \*

إن الصعوبة الأساسية في الكتابة عن المسألة اليهودية تكمن في الحساسية المفرطة التي يبديها كل من اليهودى وغير اليهودى تجاه الموضوع، حيث يسود إحساس مبهم بأنه من غير اللائق على الإطلاق استخدام كلمة "يهودى" شفاهة أو حتى كتابتها فى التقارير الصحافية المطبوعة، وبخشية بذلت محاولات مهذبة لتجنب ذكر تلك الكلمة واستخدام كلمات أخرى مثل "عبرى" و "سامى" غير أن كلتى اللفظتين لا تتسمان بالدقة. ويحاول الناس أن يتحسسوا طريقهم عند إثارة النقاش حول هذا الموضوع كما لو أنه أمر محظور. ويظل الأمر كذلك إلى أن يأتى مفكر يهودى يتحلى بالشجاعة ويعيد التذكير بالكلمة القديمة الجيدة "يهودى" وينتج عن ذلك أن تهدأ الأعصاب ويقل التوتر. وكلمة يهودى ليست كنية أو لقباً، ولكنها اسم قديم و مشرف، ويحمل مغزى ما فى كل فترة من فترات التاريخ الإنسانى الماضى والحاضر، والمستقبل الآتى.

وهناك حساسية مفرطة حول المناقشات العامة التى تدور حول المسألة اليهودية والتى يشترك فيها الجنيتيل، أو الأغيار، غير اليهود، حيث يفضلون أن تظل فى نطاق تلك المنطقة المبهمة من فكرهم والتى لا يجب الكشف عنها بل تظل محاطة بغلالة من السرية، وقد يكون تراثهم (غير اليهود) الذى ينطوى على قيم التسامح لديه علاقة باتجاهاتهم تلك، ولكن ربما هذه الحساسية ترجع فى جزء منها أيضا إلى حسهم الغريزى بالصعوبة المتوقعة من جراء تلك المناقشات.

فالتصريحات العامة التي ينطق بها العامة من الأغيار حول المسألة اليهودية تصدر إما من الساسة أو الخطباء بعد حفلات العشاء، وهي تصريحات يعاد فيها بشكل روتيني تكرار الاسماء اليهودية المرموقة في علوم الفلسفة والطب وفروع الأدب والموسيقى والمال، ويتم الإسهاب في التفاصيل حول قدرة اليهود وطاقاتهم ونجاحهم كمجموعة عرقية، وبعد انتهاء مثل تلك الخطب يعود كل واحد من أولئك الساسة أو الخطباء إلى بيته يملؤه شعورا بأن إحدى المساحات الصعبة مع اليهود قد تم التفاوض عليها بشكل لا يخلو من المهارة، ولكن كل شيء يظل على حاله. فاليهودي لا يتغير واللايهودي لا يتغير، ويظل اليهودي أسطورة هذا العالم. أما الحساسية المفرطة للأغيار تجاه الموضوعات المتعلقة باليهود فهي تتعكس - في أفضل صورة لها- في الرغبة في اللوذ بالصمت، ولسان حالهم يقول: "لماذا نناقش هذا الأمر على الإطلاق؟". غير أن ما لا يدركونه هو أن هذا السلوك ذاته هو أكبر دليل على أن هناك مشكلة ما نعمل على تجنب الحديث عنها قدر ما نستطيع. ويرى المفكر المهم بعواقب مثل هذا السؤال - "لماذا الحديث عنها على الإطلاق؟" - بوجود مشكلة لن تكون مناقشتها أو كبتها أمراً اختيارياً لأصحاب العقول البسيطة.

هل هناك مسألة يهودية في روسيا؟ هذا أمر غير قابل للنقاش، هي توجد في أسوأ صورها. هل من الضروري مواجهة المسألة اليهودية في روسيا؟ بدون شك لا بد من مواجهتها بكل وسيلة يمكن أن يتحقق من خلالها الأمل والمصالحة. من المعروف أن عدد السكان اليهود في روسيا يزيد عن عددهم في الولايات المتحدة بنسبة 1%، وغالبية اليهود الروس ليسوا أقل تهديبا من أولئك الموجودين في الولايات المتحدة، غير أنهم يعيشون في ظل قيود غير موجودة هنا، ولكن في روسيا بلغ اليهود بذكائهم درجة من النفوذ أذهلت العقل الروسى.

إذا ما ذهبنا إلى رومانيا أو روسيا أو النمسا أو ألمانيا، أو حتى أى مكان آخر احتلت فيه المسألة اليهودية مساحة كبيرة في المناقشات العامة كموضوع حيوى، سنكتشف أن القضية الأساسية ما هي إلا نتاج الخصوصية اليهودية في تحقيق النفوذ.

وفى الولايات المتحدة يكاد يكون سبب وجود المسألة اليهودية هو حقيقة كيف أن هذه الاقلية - حيث إن اليهود ثلاثة بالمائة من أمة يبلغ عدد سكانها مائة وعشرة

مليون نسمة - قد استطاعت في مدة قوامها خمسون عاما أن تحظى بدرجة من السيطرة من المستحيل أن تحصل عليها مجموعة عرقية أخرى، أكبر عشر مرات من عدد السكان اليهود. الأمر نادرا ما يستدعى التعليق إذا كان هناك ثلاثة بالمائة من أى مجموعة عرقية أخرى، لأنك لن تتقابل مع ممثلين لهذه الأقلية فى كل الأماكن العليا التي تذهب إليها: فى المجالس الشديدة السرية للأربعة الكبار فى فرساي [الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا وفرنسا] أو فى المحكمة العليا، أو فى مجالس البيت الأبيض، أو فى مراكز المال فى العالم، فهم يتواجدون أينما كانت هناك قوة أو نفوذ يمكن أن يحاز أو يستغل. غير أننا نقابل اليهودى فى كل مكان فى الدوائر العليا، وتقريبا فى كل مكان توجد فيه القوة؛ لأنه يملك الفكر والمبادرة والرؤية النفاذة التى تضعه بشكل آلى فى القمة، وبالتالي هو أكثر تميزا من أى جماعة عرقية أخرى.

وعندئذ تبدأ المسألة اليهودية، وهى تبدأ بأمر بسيط للغاية وهو كيف أن اليهودى ينجذب بدون مقاومة وبشكل اعتيادى إلى الأماكن العليا؟ من يضعه هناك؟ ولماذا يوجد هناك؟ وماذا يفعل هناك؟ وماذا تعنى حقيقة وجوده هناك للعالم بأسره؟

هذا هو جوهر المسألة اليهودية، وهى تنطلق من هذه التساؤلات إلى تساؤلات أخرى، أما إن الاتجاهات الناتجة عن هذه التساؤلات سوف تكون مؤيدة لليهود أو معادية للسامية فيتعلق على حجم الضرر أو الفائدة على المتحرى، أو أن يصبح الاتجاه إنسانياً، فذلك يتوقف على حجم بصيرة وذكاء المتحرى.

إن استخدام كلمة الإنسانية مع كلمة اليهودى عادة ما تثير معنى جانبيًا غير مقصود، ذلك أنه فى هذا الإطار عادة ما يفهم أن الإنسانية يجب أن تمارس تجاه اليهود. ولكن هناك على اليهودى فرض مماثل فى القدر بأن يظهر إنسانيته مع كل البشرية. اعتاد اليهودى منذ زمن طويل أن يفكر فى نفسه كالمطالب المتفرد بإنسانية المجتمع، ولكن المجتمع من ناحية أخرى يأخذ عليه ضرورة أن يكف عن اعتبار نفسه متفردا، وأن يكف عن استغلال العالم، وأن يكف عن جعل الجماعات اليهودية هى الغاية، وأن يبدأ فى تحقيق - وبشكل ما فإن هذا الزعم بالتفرد لم يمكنه أبداً من تحقيق - النبوءة القديمة التى تقول بأنه من خلال اليهود فإن شعوب الأرض تتم لها البركة.

اليهودى لا يستطيع أن يستمر فى ممارسة دوره كمتوسل للإنسانية العالمية، حيث يجب عليه أن يتعامل هو الآخر بإنسانية تجاه هذا المجتمع الذى تكونت لديه شكوك جدية حول محاولات الجماعات اليهودية القوية لاستغلاله بضرارة، وبشكل يخلو من الشفقة، وهو أمر يمكن أن يوصف بكونه برنامجاً اقتصادياً ضد إنسانية عاجزة؛ لأن المجتمع الإنسانى يقف عاجزاً بالفعل أمام الابتزاز المنظم الذى قامت به جماعات مالية حسنة التنظيم، مثلما كان يهودو روسيا عاجزين أمام العصابات المعادية للسامية. وفى روسيا كما فى الولايات المتحدة، اليهودى الفقير هو الذى يدفع ثمن التجاوزات التى يرتكبها المستغلون الأغنياء من بنى جنسه.

وتجدر الإشارة بأن هذه السلسلة من المقالات قد قوبلت بحملة منظمة من الخطابات البريدية والتلغرافات و المكالمات الهاتفية، وكل واحد منها يتضمن عويلاً بالاضطهاد. ويتصور المرء كما لو أن الأمر يتضمن هجوماً قاسياً وعنيفاً ضد أناس عاجزين وضعفاء، حتى نقرأ عنوان الخطاب لندرك الوجيه الذى كتبه والحالة المالية لأولئك المحتجين، وكذا إلى عضوية المنظمات التى يطالب رؤساؤها بشكل هيسستيرى بسحب المقالات. ودائماً فى الخلفية هناك التلويح بالمقاطعة، وهو تهديد منع كل أعمدة الصحف فى أمريكا عن أى مناقشة، ولو بسيطة، حول المسألة اليهودية.

ولكن هذه التهديدات ضد النشر لا يمكن أن تخفى حقيقة المسألة اليهودية فى أمريكا للأبد، كما لا يمكن أن تخفيها المطبوعات الدعائية التى تمتدح كل ما هو يهودى، لابد من الاعتراف إذن بوجودها وأنه لا يمكن تحويلها لشيء آخر بالاستخدام الشاذ للدعاية، ولا يمكن إخراسها بالتهديد. إن يهود الولايات المتحدة سيخدمون مصالحهم بشكل أفضل، وكذا ذويهم من اليهود فى كل أنحاء العالم إذا ما أسقطوا تلك التهمة الجاهزة دائماً وهى صرخة العداة للسامية، ذلك أن عليهم أن يتبنوا أسلوباً أكثر صراحة من ذلك الذى يليق بضحية عاجزة، وعليهم الاعتراف بالمسألة اليهودية، وكيف أنها تلزم كل يهودى يحب قومه بأن يساعد على إيجاد حل للمسألة بدلا من إنكار وجودها. أريد أن أوضح أنه فى هذه السلسلة تم استخدام مصطلح "اليهودى العالمى" وهو قابل لتفسيرين: أولهما هو اليهودى أينما وجد، والثانى هو اليهودى الذى يمارس السيطرة العالمية، ومشكلة العالم هى مع الأخير وتابعيه، سواء كانوا يهوداً أو من الأغيار.

هذا النوع العالمي من اليهود، هذا الساعى للسيطرة على العالم، هذا المالك الحقيقى والممسك بالسيطرة العالمية، هو بمثابة نكبة لبنى جنسه، ذلك أن أكثر الأمور سوءاً، من وجهة نظر اليهودى العادى، هو أن هذا اليهودى العالمى (الساعى وراء السيطرة على العالم) هو أيضا يهودى، ومغزى هذا الأمر هو أن هذا اليهودى العالمى لا ينمو إلا على "جذع" يهودية، ولا يوجد أى عنصر عرقى أو قومى آخر يقدم مثل تلك النوعية من الأشخاص. والأمر لا يتعلق فقط بكون أن هناك بعضاً من اليهود يشغلون مناصب مراقبين ماليين عالميين، ولكن أن كل هؤلاء المراقبين العالميين فقط يهود. هذه الظاهرة هى التى تخلق المواقف المنكوبة لأولئك اليهود الذين لم ولن يتحكموا فى أموال العالم، وهم اليهود البسطاء. ولو كان أولئك المتحكمون فى أموال العالم من جنسيات مختلفة، مثل أولئك المتحكمين فى صناعة البسكويت، لما شكل اليهود بينهم أى مشكلة على الإطلاق، إلا فى حدود أن قلة من الرجال يتحكمون فى أموال العالم، ولكن لأن المراقبة المالية العالمية هى طموح حقه لليهود فقط، وليس بواسطة أى من الطرق والمناهج التى عادة ما يتم تبنيتها بواسطة أولئك الراغبين فى غزو العالم، يصبح من الحتمى إذن أن يتركز التساؤل حول تلك الجماعة العرقية على وجه التحديد.

وهذا من شأنه أن يستدعى صعوبة أخرى، حيث إن النقاش حول هذه المجموعة من المراقبين العالميين المسماة باليهود (وهم بالفعل يهود) وليس من الممكن دائماً أن نتوقف ونميز المجموعة من اليهود التى نعنيها وإنما القارئ الذكى بإمكانه أن يقرر هذا الأمر، أما القارئ اليهودى فسوف يعتبر أنه يتعرض للإساءة؛ لأنه بالقطع سينألم لقراءة تلك التهمة على أنها موجهة له، فى حين أن المقصود بها هم بالأساس الطبقات العليا من اليهود، وقد يطرح هذا التساؤل: " فلماذا إذن لا نناقش الطبقة العليا على اعتبار أنهم ممولون وليس لكونهم يهوداً؟" وتأتى الإجابة لأنهم ببساطة يهود. وليس فى صلب الموضوع أن نصر على أنه فى أى قائمة من قوائم الرجال الأغنياء فإن أسماء الأغيار ستكون أكثر من أسماء اليهود، فنحن لسنا بصدد الحديث عن الرجال الأغنياء الذين حصلوا على ثروتهم من خلال خدمة نظام ما أو مجتمع ما، وإنما نحن نتحدث عن أولئك الذين يسيطرون، وهو أمر واضح تماماً، ذلك أنه لكى تكون غنياً ليس بالضرورة أن تسيطر، واليهودى المسيطر على العالم يمتلك ثروات، ولديه أيضاً ما هو أكثر من الثروة.

اليهودى العالمى كما سبق تعريفه، يحكم ليس لكونه غنيا، وإنما بحكم كونه يملك - بتميز بارع - خصلة تجارية شمولية قاصرة على بنى جنسه، كما وأنه يستفيد من ولاء بنى جنسه وتضامنهم، حيث لا يوجد مثيل لهذا الولاء والتضامن فى أى مجموعة بشرية أخرى. بمعنى آخر فلنجرّب أن ننقل السيطرة العالمية اليوم من اليهودى العالمى ونضعها فى أيدى أكثر مجموعات الأغيار ذكاءً وموهبة، وستكون النتيجة هى أن نسيح السيطرة العالمية سوف يتهاوى تماما؛ لأن الأغيار يفقدون صفة بعينها، قد تكون إنسانية أو سماوية، طبيعية أو مكتسبة، هذه هى الصفة التى يمتلكها اليهودى.

ولكن بالطبع ينفى اليهودى المعاصر هذا الأمر تماما، وهناك موقف جديد يتبناه الحداثيون من اليهود، حيث ينفون أن اليهودى مختلف عن أى شخص آخر إلا فيما يتعلق بأمر الدين، وهم يقولون بأن صفة "اليهودى" ليست توصيفا عرقيا ولكنه توصيف دينى مثله فى ذلك مثل "الأسقفيين" و"الكاثوليك" و"أتباع الكنيسة المشيخية". هذه أيضا الحجة التى تستخدم فى مكاتب الصحف حينما تطلق صفة "اليهودى" على أولئك اليهود المتورطين فى أعمال إجرامية، حيث توجه رسائل إلى المحرر مفادها: "أنت لا تستخدم توصيفات دينية للأفراد الآخرين حينما يتم اعتقالهم"، "فلماذا تفعل هذا إذن باليهود؟" ودائما ما تنتصر الدعوة إلى التسامح الدينى، وهى أيضا مفيدة فى إلهاء الأنظار عن أشياء أخرى.

حسنا إذا كان اليهود بالفعل مختلفين دينيا عن بقية العالم، فإن الظاهرة تصبح أكثر غرابة، ذلك أن بقية العالم مهتم أقل بديانة اليهودى عن اهتمامه باليهودى نفسه. ولأنهم يدركون أنه لا يوجد بالفعل أى شىء فى ديانة اليهودى تجعل اليهودى مختلفا عن بقية الإنسانية، لاسيما فيما يتعلق بالمحتوى الأخلاقى لهذا الدين. وحتى لو كان الأمر عكس ذلك، فإن عليه أن يعمل لتخطى هذه الاختلافات من خلال كون ديانتة اليهودية تشترك مع كل الديانات الأخرى فى القواعد الأخلاقية. بالإضافة لذلك يوجد بين الدول الناطقة بالإنجليزية حوالى ٢ مليون يهودى يعترفون بعرقهم وليس ديانتهم، بينما يوجد حوالى مليون يهودى يعتبرون أنفسهم لا أدريين<sup>(\*)</sup>. هل يمكن اعتبار هؤلاء إذن أقل يهودية من الآخرين؟ إن

---

(\*) اللأدرى يقول إنه لا يعرف، فهو - حسب زعمه - ليس عنده من المعرفة ما يجعله يؤمن، أو ما يجعله يلحد.

العالم لا يعتقد ذلك. ودارسو الاختلافات البشرية الموثوق بهم لا يعتقدون ذلك أيضاً. فالشخص الأيرلندي الذي ينمو غير مكترث بالكنيسة لا يزال يعتبر رجلاً أيرلندياً، ويبدو الأمر بالمثل في حالة اليهودى الذى ينمو غير مكترث بالمعبد، حيث لا ينقص هذا الأمر من كونه يهودياً، هو على الأقل يشعر بأنه يهودى، وكذلك أيضاً يشعر الأغيار بأنه يهودى.

وسينشأ تحد آخر من نظرية الحدائين من اليهود؛ لأنها ستتطلب تفسيراً لظاهرة اليهود المسيطرين على العالم بواسطة ديانتهم، ذلك أننا سنكون مدفوعين للقول بأنهم " يتفوقون من خلال هويتهم الدينية" وبالتالي تتحول المشكلة إلى الدين الذى تجلب ممارسته واعتناقه القوة والرخاء لمعتنقيه. ولكن هناك حقيقة أخرى لا بد وأن تظهر وهى أن أولئك اليهود المسيطرين على العالم ليسوا بالضرورة متدينين، وحقيقة ثانية لا بد من إدراكها وهى أن معظم المؤمنين المخلصين والتابعين المطيعين للديانة اليهودية هم الأكثر فقراً بين اليهود. فإذا كنت تبحث عن اليهودية الأورثوذكسية وأخلاقيات العهد القديم، فإنك لن تجد معتقياً من اليهود الناجحين الذين أضفوا صبغة مسيحية على ديانتهم، بمثل ما أضفى الموحدون(منكرو التالوث) صبغة يهودية على المسيحية، ولكنك ستجد معتقياً من الفقراء فى الشوارع الخلفية الذين مازالوا يضحون بأشغال يوم السبت للحفاظ على حرمة. فمما لاشك فيه أن ديانتهم لم تمنحهم السيطرة على العالم ولكن بدلا من ذلك فقد قاموا بتضحياتهم؛ لكى يحفظوها ضد الحداثة.

وبطبيعة الحال فإذا كان اليهودى يختلف عن بقية الجنس البشرى فقط حينما يكون على وفاق كامل مع ديانتته، سيكون السؤال بسيطا وسوف يصبح أى انتقاد لليهودى مجرد عصبية دينية لا شىء آخر، وهذا سيكون بالفعل أمراً غير محتمل. ولكن هناك إجماع بين العقول الحصيفة على أن اليهودى يختلف فى ديانتته عن بقية العالم أقل من اختلافه فى أى شىء آخر، بل هناك اختلاف أكبر بين فرعى المسيحية أكثر مما هناك اختلاف بين أى منهما واليهودية.

فعلى الرغم من نظرية أولئك الحدائين اليهود، فإن العالم سيواصل الاعتقاد بأن اليهودى هو عضو مجموعة عرقية، وهى مجموعة دفعها إصرارها لهزيمة كل المحاولات التى بذلت لإبادتها، وهى مجموعة عرقية تمكنت أيضاً من الحفاظ على ذاتها بشجاعة وقوة، وذلك بمراعاة القوانين الطبيعية والتى أدى خرقها لتحول

أمم كثيرة إلى "هجين"، وهي كذلك مجموعة عرقية جاءت من الماضى بقيمتين أخلاقيتين عظيمتين ترتكبان على الوحداية وعدم التعدد الزوجى<sup>(\*)</sup>، وهي كذلك مجموعة عرقية تعد بمثابة أثر تحن إليه ثروتنا الروحية. كلا، اليهودى سوف يواصل النظر إلى نفسه على اعتبار أنه عضو فى شعب أو أمة أو عرق، وكل الخليط وتداخل الأفكار فى الدين أو التقاليد لا يمكن أن تجعله يفكر بطريقة مختلفة. اليهودى هو اليهودى، وطالما التزم بتقاليد عدم الذوبان فى الآخرين سوف يظل كذلك، وسيظل يملك الحق فى الاعتقاد بأنه ليكون يهودياً فهو لابد وأن ينتمى لعرق أعلى (سامى).

هؤلاء اليهود المسيطرون على العالم الذين يديرون الأمور، هم فى تلك الأوضاع بفضل صفات معينة، وهى صفات موروثه فى طبيعتهم اليهودية، فكل يهودى يملك هذه السمات حتى ولو بمعنى غير سام، كما أن كل رجل إنجليزى لديه لسان شكسبير ولكن ليس بالدرجة التى كان يتحدث بها شكسبير، وبالتالي ليس عملياً إن لم يكن مستحيلاً النظر فى موضوع اليهودى العالمى بدون الإشارة للبنية الأساسية حول الشخصية والسيكولوجية اليهودية.

وربما نسقط على الفور الشائنة الشائنة جدا وهى أن هذا الشكل من النجاح اليهودى مبنى على عدم الأمانة، ذلك أنه من المستحيل الادعاء على اليهود أو حتى على أى مجموعة بشرية أخرى بتهمة ما بشكل معمم، فاليهودى مما لاشك فيه هو أكثر الناس دراية بمدى انتشار فكرة أن طرق اليهود فى العمل هى طرق خالية من الضمير، ومما لاشك فيه أن قدراً كبيراً من ذلك ممكن الحدوث بدون أى مخالقات قانونية، ولكن من الممكن أن سبب هذه السمعة التى اكتسبها اليهود فى هذه المجالات قد تكون له مصادر غير التهمة المستمرة بعدم الأمانة.

ويمكن أن نشير إلى أحد هذه المصادر، فاليهودى الذى يعمل بتجارة ما هو بطبيعته أكثر سرعة (احترافاً) من الآخرين، وهناك نظريات تقول بأن بعض المجموعات العرقية قد تتمتع بذات الخاصية فى مجال التجارة مثل اليهودى، ولكن اليهودى لا يعيش فى وسط هؤلاء، ويجدر بالمرء أن يتذكر الدعاية الشهيرة حول اليهودى الذى ذهب إلى اسكتلندا.

(\*) ليس فى اليهودية منع لتعدد الزوجات، وقصص الأنبياء فى العهد القديم تحكى عن تعدد زوجات داوود وعشرات الزوجات لسليمان.

ولكن على ما يبدو أن الطبيعة البشرية للأشخاص الذين يتصرفون ببطء تدفعهم للاعتقاد بأن الرجل السريع (شاطر) لدرجة كبيرة مما يدفع لإثارة الشكوك حول شطارته، وربما يرجع ذلك إلى أن الجميع يتشكك في الإنسان الشاطر حتى لو كانت شطارته أمينة تماما، والعقل الذى يتصرف ببطء يميل إلى الاعتقاد بأن الشخص الذى يوظف خدعًا وحيلاً قانونية لتحقيق أرباح فى تجارة ما ليس من المستبعد أن يوظف، بل ويستخدم أيضا عدداً من الخدع والحيل غير القانونية، بالإضافة لذلك فهناك أيضا الشكوك الجاهزة بأن الشخص الذى يحظى بأفضل صفقة لا بد وأنه قد حصل عليها بالخداع، فالأشخاص الذين يتصرفون بتأن وأمانة، وحديثهم بسيط، وتعاملهم مستقيم، تتكون لديهم شكوك حول الشخص الذى يحظى بالصفقة الأفضل.

واليهود- كما أوضحت سجلات القرون الطويلة- كانوا أناساً حريصين فى مهنة التجارة حتى أن أفراداً كثيرين اعتبروهم محتالين، ونتيجة لذلك أعتبر اليهودى غير مرغوب فيهم لأسباب مهنية وليست كلها تحسب لصالح ذكاء أو مبادرات أعدائه.

ولنأخذ على سبيل المثال الاضطهاد الذى عانى منه التجار اليهود فى وقت من الأوقات فى انجلترا، ففى انجلترا القديمة كانت طبقة التجار تتمتع بالعديد من التقاليد المرنة. أحد هذه التقاليد- على سبيل المثال- هى أن التاجر المحترم لا يمكن أن يقوم بالسعى للعمل ولكن عليه أن ينتظر حتى يأتى إليه العمل، وهناك تقليد آخر يتمثل فى أن قيامه بتزيين محله بالأضواء والألوان، أو أن يعرض ماله من بضاعة بشكل جذاب أمام الناظرين، يُعتبر وسيلة محتقرة واحتيالية لإغراء عملاء التجار الآخرين، كذلك فإن أحد التقاليد الأخرى تمثل فى كونه من غير الأخلاقى أو المهنى أن تتعامل فى أكثر من نوع من السلع، فإذا باع أحد التجار الشاي كان ذلك سببا كافيا لكى لا يبيع ملاحق الشاي. أما فيما يتعلق بالإعلانات، فإن الأمر يكون من الوقاحة والجرأة بمكان حتى أن الرأى العام- من شدة الغضب- يمكن أن يؤدى بالمعلن إلى الخروج من العمل؛ لأنه وفق القواعد السائدة آنذاك، السلوك الصحيح للتاجر هو أن يبدو متمنعا لفراق سلعته.

وللمرء أن يتخيل ما يمكن أن يحدث حينما يدخل التاجر اليهودى فى قلب هذه

الغابة من التقاليد. لقد قام بخرق كل هذه التقاليد ببساطة شديدة، رغم أنه - فى تلك الأيام - كانت التقاليد تتمتع بقوة أشبه بقوة القوانين المنصوص عليها إلهيا، وبالتالي فإن مبادرة اليهودى بخرقها نتج عنها اعتباره مرتكب كبيرة. فالشخص الذى من شأنه أن يخرق هذه التقاليد التجارية سوف لا يردعه شيء، واليهودى كان تواقا للبيع، وإذا لم يستطع بيع سلعة ما لأحد زبائنه فلدیه سلعة أخرى بصدد أن يعرضها عليه، ومحلات اليهودى تحولت إلى بازارات (أسواق) وهو أمر سابق على المحلات الكبرى الحالية، ومن ثمّ تمّ القضاء على التقليد الإنجليزى بوجود محل واحد للسلعة الواحدة. وقد سعى اليهودى وراء التجارة وتعقبها، وكان أول من أصل لمبدأ "بيع سريع وربح قليل" وقد أصل أيضا لمبدأ التسييط. أما الحالة التى لم يكن ليتحملها فهى ركود العمل، وبوسعه أن يفعل أى شيء ليحرك المياه الراكدة، وحتى أنه فى الوقت الذى كان فيه الإعلان -حتى فى المطبوعات العامة- عن موقع المحل يعد أمرا مسيئا للعامة إلى حد يضع التاجر فى مخاطر مالية، كان اليهودى أول من استخدم الإعلان، فهو يوظف كل الذرائع والحيل التى لم يكن لينحنى لها أقل التجار احتراماً لنفسه.

وقد كان من السهل الربط بين هذه الطاقة وعدم الأمانة، غير أن اليهودى لم يكن يلعب هذه اللعبة، على الأقل مع التاجر الانجليزى الرصين، ولكن حقيقة الأمر أنه كان يلعب ليحوز كل شيء بين يديه، وقد حقق ذلك بالفعل. وقد أظهر اليهودى ذات المهارة منذ ذلك الوقت حتى أن قدرته على تحليل اتجاهات المال قد قاربت أن تصبح غريزية، وصارت مؤسساته فى أى دولة بمثابة القاعدة التى ينطلق ويعمل من خلالها بنو قومه. وإذا ما كان الأمر نتيجة طبيعية للمواهب الموروثة أو أنه بمثابة خطة متعمدة للوحدة والولاء العرقين، فكل المجتمعات اليهودية التجارية كانت تتمتع بصلات مع بعضها البعض، وكلما ازدادت ثروات ونفوذ وهيبة هذه المجتمعات التجارية، كونوا صداقات مع الحكومات، وأصبحت لديهم مصالح عظمت فى تلك الدول التى عملوا فيها. فهم ببساطة شديدة عملوا على تقوية مجتمعهم المركزى أينما وجدوا، فى إسبانيا وفى هولندا وإنجلترا، وسواء تم ذلك بشكل مخطط له أم لا، فقد أصبح يجمعهم تحالف وتضامن ربما أكبر بكثير من تلك الرابطة العضوية التى تربط بين فروع المشروع التجارى الواحد، وسبب ذلك مرده إلى اللحمة التى تفرسها الوحدة العرقية. ومثل هذا الرابط العرقى لا يمكن له

أن يتواجد بين الأغيار كما هو موجود بين اليهود، فالأغيار لا يفكرون بأنفسهم على أنهم أغيار، وهم لم يشعروا أبدا أنهم يدينون بأى شيء لأغيار آخرين، وبالتالي كانوا عملاء مناسبين للمخططات اليهودية فى الأوقات والأماكن التى لم يكن من المناسب أن يظهر المسيطرون اليهود على الملأ، غير أنهم (الأغيار) لم يكونوا أبدا منافسين ناجحين لليهود فى السيطرة على العالم.

وكان المجتمع المركزى لليهود يستمد قوته من هذه المجتمعات اليهودية المنفصلة، حيث يعيش كبار المصرفيين ومحللو الشئون المالية، ومن هذا المجتمع المركزى ذاته خرجت المعلومات القيمة والمساعدات لأى مكان يحتاجها.

ولم يكن من الصعب بمكان معرفة كيف أنه فى ظل هذه الظروف، فإن أى دولة لا تتعامل بكرم مع اليهود كانت تعاقب، بينما تلك التى تستسلم لكل رغباتهم تلقى التفضيل لديهم، وقد بينوا - بمصادقية - كيف جعلوا بعض الأمم تحس بقسوة غضبهم.

هذا النظام - إذا وجد من قبل - فهو موجود اليوم بقوة أكثر، ولكن فى الوقت نفسه هذا الوجود مهدد بشكل لم يسبق له مثيل، فمنذ خمسين عاما مضت كان العمل البنكى (المصرفى) العالمى - الذى كان فى معظمه تحت السيطرة اليهودية حيث كانوا هم سماسرة المال العالميين - هو المهنة على القمة، وقد مورست هذه السيطرة على الحكومات والشئون المالية فى كل الأنحاء إلى أن ظهر هذا الشيء الجديد؛ الصناعة التى توسعت لدرجة لم يكن ليتنبأ بها أكثر الأنبياء والمحللين حصافة، وكلما اكتسبت الصناعة قوة ونفوذاً صارت جاذباً قوياً للأموال، تسحب ثروات العالم إلى قافلته، ليس فقط بسبب الرغبة فى امتلاك المال وإنما لتشغيله أيضاً. وأصبح المنهاج الرئيسى يقوم على مبدأ الإنتاج والأرباح على الإنتاج بدلا من القروض والفوائد على القروض. ثم جاءت الحرب التى - مما لا شك فيه - كان لسماسرة العالم السابقين دور أساسى فى إشعال نيرانها، والآن القوتان الرئيسيتان الصناعة والمال ظلا يتصارعان ضد بعضهما البعض لمعرفة ما إذا كان المال له الغلبة وسوف يتسيد الموقف مرة أخرى، أو أن الصناعة ستكسب المعركة. هذا هو أحد الأمور التى تدفع بالمسألة اليهودية للوقوف أمام محكمة الرأى العام.

أن نقول هذا ونحاول إثبات صحته، ربما لن يكون أكثر من ترسيخ مقولة

علو القدرة اليهودية. وبالتأكيد لا يمكن الدفاع عن مقولة إن اليهودى ناجح بشكل غير عاد، وبالتالي لابد من إيقافه وردعه، كما وأنه سيكون أيضا مجافيا للحقيقة القول بأن تنسيق النشاط بين اليهود كان فى مجمله أمرا مهيدا للعالم. من المحتمل أنه حتى الآن كان مفيدا. النجاح لا يجب أن يهاجم أو يدان، وإذا كانت هناك أسئلة أخلاقية تثار على الإطلاق، فلا بد وأن تتعلق باستخدام هذا النجاح الذى تم الحصول عليه. إن كل الموضوع يتركز هنا، بعد أن تأكدت تلك الحقيقة السابقة. والسؤال الآن: هل يمكن أن يستمر اليهودى كما استمر من قبل؟ أم أن واجبه تجاه العالم يتطلب توظيفا آخر لهذا النجاح؟

هذا التساؤل بدوره يقود إلى نقاشات أخرى بالإضافة إلى جميع الخيوط المتبقية للنقاش الحالى، وهوما سنتناوله المقالات المستقبلية.

(ديربورن إنديننت، عدد ١٢ يونيو ١٩٢٠م)

\* \* \*